

الفصل الرابع

النواحي العقلية المعرفية

إن نواحي الشخصية العقلية ، ومركباتها النفسية ، من حيث القدرات والمواهب والموامل المزاجية والصفات الخلقية هي ميدان علم النفس الحقيقي ؛ والدراسة التفصيلية لهذه النواحي يمكن أن تطول وتتشعب حتى تشمل علم النفس بأكمله . وتسهيلاً للبحث كالمعتاد نلجأ إلى تقسيم هذه النواحي العقلية إلى : النواحي المعرفية ، والنواحي المزاجية ، والنواحي الخلقية . وسأتناول الآن أثر النواحي العقلية المعرفية في تكوين الشخصية . .

من حسن الحظ أن هذا الركن من أركان الشخصية هو أكثر النواحي وضوحاً وتحديداً نظراً للدراسات الكثيرة التي تمت في محيطه ؛ فالحياة العقلية المعرفية أكثر خضوعاً للقياس والتحديد من الحياة المزاجية أو الخلقية .

ونظراً لهذا الوضوح ، وللتناجح الثابتة نسبياً التي وصل إليها علماء النفس في هذه الناحية ، فإن عدداً كبيراً من الباحثين حديثاً

في موضوع الشخصية يمر على هذه الناحية مروراً سريعاً باعتبار أن حقائقها قد أصبحت أمراً معلوماً للكثيرين .

والمقصود بالنواحي المعرفية تلك العمليات والعوامل العقلية التي يتوقف عليها كسب المعرفة والخبرة بما تشمل من إدراك وتصور وتخيل وقدرة على التذكر والتفكير والتعلم ، وبما يتطلبه كل ذلك من ذكاء عام وسواهب أو قدرات خاصة .

ويمكن في دراستنا للشخصية أن ندرس هذه النواحي المعرفية من حيث : (أ) العمليات العقلية وتدرج مستوياتها من البسيط إلى المركب ، أو : (ب) من حيث تقسيم القدرات العقلية إلى عوامل عامة وطاقات نوعية ونوعية .

(أ) العمليات العقلية ومستوياتها

أما من حيث المستويات فقد دلت الأبحاث النفسية على أن هناك ارتباطاً كبيراً بين النواحي الجسمية والحركية والنواحي الإدراكية والمعرفية ، وأن هناك نوعاً من التدرج يوضح تداخلها وتعاونها دائماً بحيث يصعب أن نجد بينها حدوداً فاصلة ؛ لأن الشخصية كلها وحدة متكاملة كما سبق القول . ويمكن أن نلمس هذا التدرج في المستويات الآتية : —

١ — المستوى الحسي الإدراكي (Sensory - Perceptual level)

٢ — المستوى الإدراكي الحركي (Perceptu - Motor level)

٣ — المستوى الترابطي (Associative Level)

٤ — مستوى إدراك العلاقات (Relational level)

المستوى الحسي الإدراكي :

ويشمل العمليات العقلية التي تتعلق بالإبصار والسمع ،
والذوق والشم ، وباقي الحواس الأخرى ، وما يتصل بها من
مسالك عصبية تساعد على وصول الإحساسات إلى المراكز الحسية
لإدراكها وتمييزها ، ويختلف الناس في استجاباتهم الحسية
الإدراكية من حيث السرعة والبطء ، ومن حيث الوضوح
والغموض . وتقاس الاختلافات بين الأشخاص في هذه النواحي
بوسائل مختلفة مثل قياس زمن الرجوع (Reaction time) وهو
الزمن الذي يمضي بين حدوث المؤثر والرد عليه ، كما تقاس أنواع
الإحساسات بما يناسب نوعها بصرية كانت أو سمعية أو لمسية ...
وهكذا (ويرتبط بهذا المستوى ما يكون لدى الشخص من قدرة
على الانتباه والملاحظة ، وإن كانت هذه ترتبط أيضاً بعوامل
أخرى في الشخصية)

المستوى الإدراكي الحركي :

ويشمل الاستجابات الحركية المبنية على الإدراك كالتوافق الحركي في عملية الإبصار وتكثيف العين ، أو أوضاع الرأس المناسبة لاستماع الأصوات بحسب مصادرها . أو حركة الأطراف عند الاستجابات الإدراكية المختلفة ، وما ينطوي تحتها من مهارات يدوية وتوافق حركي .

ويلاحظ أن هذه الاستجابات جميعا — مع وضوح العنصر الجسمي فيها — مبنية على عمليات عقلية ؛ ولهذا يصح أن نعالجها كناحية عقلية معرفية ، ففي أغلب الحالات نجد أن التغيرات الحركية مظاهر لتغيرات عقلية . وهنا يتبين جيداً أن من الصعب أن نفصل بين النواحي الجسمية والنواحي العقلية .

المستوى الترابطي :

ويظهر أثر النواحي العقلية بوضوح أكثر عند ما نحاول تحليل العمليات العقلية في المستوى الترابطي ، وهي التذكر والتصور ، وتداعي المعاني ، والتخيل والوعي والحفظ ، وتكوين العادات المعرفية . فإدراكنا للجديد يتبعه عادة حدوث ارتباطات مع ما في الذهن من مجموعات عقلية تكونت في الماضي من الخبرات السابقة . . وهذه المجموعات تجتذب إليها المدركات الجديدة ،

وبهذا التفاعل المستمر يتم الاختيار الذي يقوم به العقل في انتقاء ما يدور في مجال السلوك من مدركات مختلفة . ويختلف الناس كثيراً في مقدراتهم الترابطية ، وكلنا يعلم الفروق الفردية في التذكر والنسيان ، وفي سرعة استحضار الصور الذهنية المرتبطة بمثيرات خاصة . وليس هذا فقط ، بل يختلف الناس أيضاً في تفكك محتويات عقولهم أو تماسكها ، وما يتبع ذلك من تفكك أو تسلسل في أفكارهم وتعبيراتهم .

ومما يجدر معرفته في هذا المستوى بالنسبة لدراسة الشخصية اختلاف الناس في نوع تخيلاتهم التي تسهل عليهم عمل الترابطات اللازمة للتذكر أو الحفظ ؛ فمن الناس من يكونون بصريين ، ومنهم من يكونون سمعيين ، ومنهم من يكونون حركيين ، وهكذا على حسب الناحية القوية فيهم من حيث القدرة على التخيل . ويتضح هذا الاختلاف من الأمثلة الآتية : - هناك أشخاص يفكرون بصور بصرية غالباً ، وعند ما يحفظون أو يستذكرون يعتمدون على الإدراك والتخيل البصري عند التذكر ، فيتذكرون العبارات بتمكانها في السطر أو الصفحة مثلاً . بينما نجد أشخاصاً آخرين يميلون إلى التفكير بصور سمعية ، ويفضلون أن يستمعوا بأذانهم ، وأن يتصوروا النغمة والأصوات

التي سمعوها عند محاولة التذكر ، بل إن بعض الناس يوجد عندهم
التخيل الحركي بوضوح في أفكارهم وتصوراتهم . . ويمكن أن
نعرف هذه الأنواع من الشخصيات بأساليبهم في الكتابة أو في
الحديث . . فإذا طلبت من ثلاثة أشخاص أن يشرحوا لك
ما حدث في حفلة ساهرة مثلاً فإن النوع البصري سيفيل على
حديثه ما رأى وما يتصوره بصرياً من ألوان الملابس والألوان
وأوصاف الأشخاص من أماكن جلوسهم وهكذا ، بينما تجد
النوع السمعى يصور لك الحفلة بطريقة تغلب فيها الصور السمعية
للموسيقى أو الغناء ، أو أصوات الحاضرين ، أو ما كان هناك من
ضوضاء وسكون . . وأما النوع الحركى فيستعين بيديه وحركاته
مقلداً ما حدث من حركات وانتقالات ، وإشارات حركية
وهكذا ؛ على أن هذه الأنواع من الشخصيات لا تظهر بوضوح
إلا في الحالات الظاهرة كما في أعراض الأمراض العقلية المختلفة .
ولكن أغلب الناس العاديين لديهم هذه القدرات المختلفة بنسب
يصعب فيها تمييز نوع الشخصية التي ينتمون إليها .

مستوى إدراك العلاقات :

في هذا المستوى من العمليات العقلية نجد أيضاً حدوث
ارتباطات كما في العمليات العقلية في المستوى السابق ، ولكن
الارتباط في هذه المرة لا يحدث بطريقة ميكانيكية وإنما يحتاج

لأعمال العقل في إدراك العلاقات بين المترابطات ، وفي تكوين علاقات جديدة ليستفيد بها العقل . ويتضح هذا في العمليات العقلية الخاصة بالتفكير والاستنتاج ، واستخلاص النتائج من المقدمات ، والتخيل والابتكار .

وطبيعى أن العقل في هذا المستوى يعتمد على جميع العمليات العقلية في المستويات السابقة أيضاً ، بل إن إدراك العلاقات قد يحدث أيضاً في أحد المستويات السابقة ، إذ أن الإدراك الحسى يعتبر إدراك علاقة بين المحسوسات ومذلولاتها ؛ وتكوين العادات الحركية أو المهارات اليدوية يعتمد في أساسه على تكوين علاقات معينة وعمل ارتباطات ثابتة بين سلسلة من الخبرات . وهكذا يمكن أن ندرك أن أية ظاهرة نفسية يمكن أن تظهر بدرجات مختلفة في المستويات العقلية المختلفة .

ويمكن أن ندرك أهمية العمليات العقلية في هذا المستوى في تكوين الشخصية إذا علمنا مبالغ الاختلافات الفردية في القدرة على التفكير والابتكار ؛ فمن الناس من يتبع خطوات بطيئة مرتبة صريحة في تفكيره ، ومنهم من يعتمد في تفكيره على الإلهام والخطوات الضمنية ، ومنهم من لا يحسن التفكير إلا في مجال ضيق الأفق ، ومنهم من يستطيع الإلمام بأطراف الموقف ويستعرضه كله بوضوح وجلاء وهكذا .

على أن أهم ما يمكن أن ننظر إليه في هذا المستوى هو القدرة على تقدير الجمال وما ينطوي تحت هذه القدرة من اختلافات فردية ؛ فهناك من يهتمون في نظرتهم الجمالية بالحقيقة الواقعة ، أو ما يلهسونه بحواسهم ، ويقابل هؤلاء فريق خيالي ينساق في أحكامه وتقديراته للجمال على ما يستثار في نفسه من عواطف وانفعالات وخيالات ، وهناك من يدعون في الابتكار الفني التعبيري كالموسيقين والمصورين والشعراء ، ومن توجد عندهم المقدرة على تقدير الجمال وتذوقه بدون أن يكونوا أنفسهم فنانين . . . وهكذا . . .

هذا ويظهر أثر الذكاء في هذا المستوى بوضوح كبير لدرجة أن سبيرمان (Spearman) عرف الذكاء بأنه القدرة على إدراك العلاقات واستنتاج علاقات جديدة أو إدراك المتعاقبات . ولكن ينبغي أن ننظر للذكاء نظرة أوسع بحيث يشمل جميع المستويات السابقة . فهو القدرة الفطرية المعرفية العامة التي يمكن الاستفادة بها في جميع العمليات العقلية .

(ب) القدرات العقلية المعرفية

يولد الناس جميعاً مزودين بنفس الأنواع من العمليات العقلية التي رأيناها في المستويات السابقة ، ولكنهم بجانب ذلك يزودون

بقدرات متفاوتة ، ومواهب مختلفة من حيث الدرجة ؛ ولهذا نجد أنه مع ما لجميع الأفراد من الحق الطبيعي في التمتع بالحياة بكل ما فيها ، إلا أن ما ركب في نفوسهم من استعدادات مختلفة يجعل من المستحيل أن تتساوى الفرص التي تتاح لكل منهم ؛ ومع ما لكل فرد من الحق في التعليم إلا أن من الخطأ أن نتجاهل الفروق الفردية وأن نعطي الجميع نفس النوع من الدراسة والتشقيف . فبدأ تكافؤ الفرص إذن يخضع لشرط ضروري جداً ، وهو وجود الدرجة الكافية من الاستعداد الفطري ، وتوافر القدر اللازم من القوي والقدرات العقلية ، بحيث يصح أن تشكافأ الفرص إذا تساوت الاستعدادات والمواهب .

ولكن ما هي هذه الاستعدادات أو القدرات العقلية التي تتحكم في مدى ما يمكن المرء أن ينال من فرص في هذه الدنيا ؟ من المهم أن نجيب عن هذا السؤال في هذه المناسبة خصوصاً أن هذه القدرات والمواهب هي التي تحدد المستوى الممكن أن تصل إليه الشخصية من حيث المركز الثقافي والاجتماعي ، وما يحتمل أن تتصف به الشخصية من حيث الأسلوب العام في الحياة .

من الممكن — لتسهيل دراسة هذه القدرات — أن نقسمها كما يأتي : —

أولاً : القدرات المعرفية الفطرية وتشمل :

(أ) القدرة العامة أو « الذكاء » .

(ب) القدرات الطائفية أو « القدرات الخاصة » .

ثانياً : القدرات المعرفية المكتسبة وتشمل :

(أ) الثقافة العامة عند الشخص .

(ب) الثقافات الخاصة أو أنواع التخصص الدراسي

والمهني .

وسأتناول هذه القدرات بشيء من التفصيل في الفصول

القادمة .